النداءات الخمس

فى

سورة الحجرات

بقلم

الدكتور / حنفى عبدالحليم حنفى

مدرس التفسير وعلوم القرآن

الحمدلله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً .. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين الذى كان خُلقه القرآن سيدنا محمد بن عبدالله القائل « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

وبعـــــــــــد ..

فلما كان القرآن الكريم هو مسك الختام للكتب المنزلة من عند الله على أنبيائه وقد كان كذلك حيث نزل على خير خلق الله ، وخاتم رسله ليتم الله بشريعته الشرائع وليكون القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

كان حقاً على المسلمين أن يُولُوه من العناية ما هو أهلُه وأن يهتموا به الإهتمام اللائق به ، وقد كان ذلك والحمدلله ، فلم يحظ كتاب من الكتب بمثل ما حظى به القرآن الكريم من العناية به والدرس والبحث . فقد إهتم به علماء الإسلام قديماً وحديثاً فلم يتركوا ناحية من نواحيه إلا بذلوا فيها غاية الجهد ، وعلى ضوء هذا الإهتمام ألفوا الكثير من المصنفات ما بين مختصر ومطول ، فاهتموا بخطه وكتابته ، كما اهتموا بقراءته وتلاوته كما بشرحه وتفسيره . وتنوعت فى ذلك الكتب . فكان منها ما إهتم برسم المصحف وكان منها ما عنى بضبط القراءة والتثبت من نقلها عن النبى صلى الله عليه وسلم . ثم كانت مع ذلك علوم القرآن المتعددة التى استوعبت كل أبحاثه وبجانبها كانت كتب المفردات التى شرحت الألفاظ . وصاحب ذلك كله كتب التفسير على كثرتها وتعدد مشاربها فكانت والحمدلله وافية بالغرض محققة للهدف .

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ فى النداءات الخمس فى هذه السورة الكريمة أن أقدم بين يديها تعريف لها أتحدث فيه عن زمان ومكان نزولها ، وعن طبيعة الفترة التى نزلت فيها ، وعن سبب تسميتها بهذا الإسم ، وعن مناسبتها لما قبلها . وعن المقاصد والأهداف التى إشتملت عليها وعن فضائل هذه السورة الكريمة ومزاياها .

سورة الحجرات

« مدنية كما قال الحسن ، وقتادة ، وعكرمة ، وغيرهم » (١)

وقال صاحب الظلال [هذه السورة التى لا تتجاوز ثمانى عشرة آية سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية . حقائق تَفْتَح للقلب وللعقل آفاقاً عالية وأماداً بعيدة وتثير فى النفس والذهن خواطر عميقة ومعانى كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد

(١) روح المعانى للألوسى ٢٦ / ١٣١ .

التربية والتهذيب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة هوأنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم ، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التى يقوم عليها هذا العالم ، والتى تكفل قيامه أولاً ، وصيانته أخيراً .. عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله ، ويليق أن ينتسب إلى الله .. عَالَمُ نقى القلب نظيف المشاعر عَف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة .. عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره . أدب فى هواجس ضميره ، وفى حركات جوارحه ، وفى الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه ، وله نظمه التى تَكْفُلُ صيانته وهو شرائع ونظم تقوم على ذلك الادب ، وتنبثق منه وتتسق معه ، فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره وتتلاقى شرائعه ومشاعره ، وتتوازن دوافعه وزواجره ، وتتناسق أحاسيسه وخطاه ، وهو يتجه ويتحرك إلى الله ... ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته ، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور ، ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم بل يلتقى هذا بذلك فى إنسجام وتناسق كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده ، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءتها بل يلتقى فيه الأفراد بالدولة ، والدولة بالأفراد ، وتتلاقى واجباتها ونشاطهما فى تعاون وإتساق](١) .

سر تسمية السورة :

سميت فى جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير بهذا الإسم ولم يرد تسميتها باسم آخر غير ذلك . حيث إن تسمية السور أمر توقيفى على الرأى الراجح . ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ « الحجرات » . ونزلت بسبب نداء بنى تميم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته ، فعرفت بهذا الإسم ، وسيأتى لذلك مزيد من بيان عند الحديث عن سبب النزول .

أغراض السورة :

تتعلق أغراضها بحوادث جدّت متقاربة كانت سبباً لنزول ما فيها من أحكام وآداب وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبى صلى الله عليه وسلم فى معاملته وخطابه وندائه ، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بنى تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسول صلى الله عليه وسلم من بيوته كما سيأتى عند

---

(١) تفسير الظلال ٦ / ٣٣٢٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢١٣ .

قوله تعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به . والتثبت فى نقل الخبر مطلقاً وأن ذلك من خُلق المؤمنين ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين .

والإصلاح بينهم لأنهم إخوة ، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين فى أحوالهم فى السر والعلانية .

وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر فى بعض جَفاة الأعراب تقويماً لأوَدْ نفوسهم [1] .

وقال الإمام فخر الدين الرازى عند تفسير قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهى إما مع الله أو مع رسوله صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس وهم على صنفين . إما أنّ يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين فى رتبة الطاعة أو خارجين عنها وهو الفسوق والداخل فى طائفتهم : إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام ، قال : فذكر الله عز وجل فى هذه السورة خمس مرات (يأيها الذين آمنوا) وأرشدهم بعد كل مرة إلى مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة . [2]

النداءات الإلهية لجماعة المؤمنين :

وفى هذا الجو الذى هيأته السورة ، وحثت المؤمنين على السمع والطاعة وسلوك سبل الحياة الطيبة ، والتلقى عن الله ورسوله ، يثبت عدة « نداءات إلهية » قوية للمؤمنين ، فنادهم بما اتصفوا به من إيمان وكان من أبرزها خمسةُ نداءات تدور حول أساس واحد هو تحديد بعض جوانب الإسلام التى يجب الدخول فيها والبعد عن طريق الشيطان فلا يخرج عليها المسلم فهى دستور للمؤمنين .

وتتألف السورة من مقطع واحد ذى فقرات واضحة المعالم وسنعرضها .

الفقرة الأولى :

(يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم) [3] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢١٤ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى ٢٨ / ١١٠ .

(٣) سورة الحجرات الآية رقم ١ .

قال الإمام بن كثير « أى لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه أى قبله بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور .

حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديث معاذ رضى الله عنه حيث قال له النبى صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم :« فإن لم تجد؟ » قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال صلى الله عليه وسلم « فإن لم تجد؟ » قال رضى الله عنه : أجتهد رأى ، فضرب فى صدره و قال : « الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لما يُرضى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم » (١)

والغرض منه أنه آخّر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدّمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله . قال على بن أبى طلحه عن ابن عباس رضى الله . « لا تقدموا بين يدّى الله ورسوله » لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفى عنه : نُهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ حتى يقضى الله تعالى على لسانه . وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون اللهِ ورسولهِ من شرائع دينكم .

وقال سفيان الثورى : « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » يقول ولا فعل ، وقال الحسن البصرى : « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » . قال لا تدعوا قبل الإمام ، وقال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كان يقولون لو أنزل فى كذا وكذا لو صنع كذا وكذا فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه » (٢) .

وقال صاحب الأساس : وهناك قراءة صحيحة بفتح التاء والمعنى لا تقدموا بين يدى الله ورسوله أى كونوا دائماً وراء الكتاب والسنة لذلك ، بل استنطقوا الكتاب والسنة فى كل شئ وسيروا على هدى ذلك ، والخلاصة أن الآية تنهى نهياً جازماً عن التقدم على الكتاب والسنة بشئ وعن الإقدام على أمر من الأمور دون معرفة هدى الكتاب والسنة فيه « واتقوا الله » فيما تفعلون وتتركون وفيما أمر الله ونهى « إن الله سميع » لما تقولون « عليم » بما تفعلون (٣) .

---

(١) رواه أحمد ٥ / ٢٣٦ ، ٢٤٢ . ورواه أبو داود فى كتاب « الأقضية » باب اجتهاد الرأى فى القضاء رقم ٣٥٩٢ . ورواه الترمذى فى باب ما جاء فى القاضى كيف يقضى تحت رقم ١٣٢٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٢٠٥ . (٣) الأساس فى التفسير للشيخ سعيد حوّى ٩ / ٥٤٠٣ .

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخارى في صحيحه فى قصة وفد بنى تميم بسنده إلى أبى الزبير قال « قدم ركب من بنى تميم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال أبوبكر : أمِّر عليهم القعقاع بن معبد بن زُرارة . وقال عُمر : بل أمِّر الأقرعَ بن حابس . قال أبوبكر : ما أردت إلا خلافى « أو إلى خلافى » قال عمر : ما أردت خلافك « أو خلافك » فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فى ذلك فنزل (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين ..الخ) الآية [1] .

فهذه الآية توطئة للنهى عن رفع الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول وندائه من وراء الحجرات .

وهناك روايات أخرى فى سبب نزولها لا تناسب موقع الآية مع الآيات المتصلة بها وأيًّامًا كان سبب نزولها فهى عامة فى النهى عن جميع أحوال التقدم المراد .

وجعلت هذه الآية فى صدر السورة مقدمة على توبيخ وفد بنى تميم حين نادوا النبى صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات لأن ما صدر من بنى تميم هو من قبيل رفع الصوت عند النبى صلى الله عليه وسلم ولأن مماراة أبى بكر وعمر وإرتفاع أصواتهما كانت فى قضية بنى تميم ، فكانت هذه الآية تمهيداً لقوله (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) الآية ، لأن من خصه الله بهذه الحظوة ، أى جعل إبرام العمل بدون أمره كإبرامه بدون أمر الله حقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت لديه .

وإنما قدم هذا على توبيخ الذين نادوا النبى صلى الله عليه وسلم لأن هذا أولى بالاعتبار إذ هو تأديب من هو أولى بالتهذيب [2] .

(يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له با لقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) [3] .

إعادة النداء للاهتمام بهذا الغرض و الإشعار بأنه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه حتى لا ينغمر فى الغرض الأول فإن هذا من آداب سلوك المؤمنين فى معاملة النبى صلى الله عليه وسلم ومقتضى التأدب بما هو أكد من المعاملات بدلالة الفحوى وهذا أيضاً توطئة لقوله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه جـ ٣ صـ ١٩١ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢١٩ .

(٣) سورة الحجرات الآية رقم ٢ .

أكثرهم لا يعقلون) وإلقاءُ لتربية ألقيت إليهم لمناسبة طرف من أطراف خبر وفد بنى تميم . (١)

وقال الإمام النسفى فى تفسير رفع الصوت : أى إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه بصوته وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم وجهره باهراً لجهركم حتى تكون مزيته عليكم لائحة ، وسابقته لديكم واضحة (٢) .

والرفع : مستعار لجهر الصوت جهراً متجاوزاً لمعتاد الكلام ، شبه جهر الصوت بإعلاء الجسم فى أنه أشدّ بلوغاً إلى الأسماع كَما أن إعلاء الجسم أوضح له فى الإبصار ، على طريقة الإستعارة المكنية أو شبه إلقاء الكلام بجهر قوىّ بإلقائه من مكان مرتفع كالمئذنة على طريقة الإستعارة التبعية .

و « فوق صوت النبى » موقع الحال من « أصواتكم » أى متجاوزة صوت النبى صلى الله عليه وسلم وأى متجاوزة المعتاد فى جهر الأصوات فإن النبى صلى الله عليه وسلم يتكلم بجهر ومعتاد . ولا مفهوم لهذا الظرف لأنه خارج مخرج الغالب إذ ليس المراد أنه إذا رفع النبى صلى الله عليه وسلم صوته فارفعوا أصواتكم بمقدار رفعه .

والمعنى : لا ترفعوا أصواتكم فى مجلسه وبحضرته إذا كلم بعضكم بعضاً ولقد تحصل من هذا النهى معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتاً عنده (٣) .

وفى صحيح البخارى . قال ابن الزبير فما كان عُمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه . ولم يذكر « أى ابن الزبير » ذلك عن أبيه يعنى أبا بكر (٤) ولكن أخرج الحاكم وعبد بن حُميد عن أبى هريرة : إن أبا بكر قال بعد نزول هذه الاية « والذى أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلاّ كأخِى السِّرار حتى ألقى الله » (٥) .

وفى صحيح البخارى قال ابن أبى مليكة « كاد الخَيِّران أن يهلكا .. أبو بكر وعمر رفعا أصْوَاتهما عند النبى صلى الله عليه وسلم » (٦) .

---

(١) نفس المرجع ٢٥ / ٢١٩ .
(٢) تفسير النسفى جـ ٤ صـ ١٦٥ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢٢٠ .
(٤) صحيح البخارى
(٥) أخرجه الحاكم ٢ / ٤٦٢ .
(٦) صحيح البخارى .